(وبالجملة فلا أضعف ممن يروم أبطال الجدال بالجدال . ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج . ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة . لأنه مقر على نفسه أنه يأتى بالباطل . لأن حجته هى بعض الحجج التى يريد أبطال جملتها)[1] .

معنى الجدل :

ذكر ابن فارس فى «مقاييس اللغة» الجيم والدال واللام : أصل واحد وهو من باب : استحكام الشىء فى استرسال يكون فيه . وامتداد الخصومة . ومراجعة الكلام .

ف «الجدل» : «شدة الفتل» «لسان العرب» .

يقال : جارية حسنة الجدل : وهى مجدولة ..

أى : مفتولة الخلق . «المشوف المعلم» .

ويقال :

«جدلت الحبل . أجدله جدلا . إذا شددت فتله . وفتلته فتلا محكما» «لسان العرب» .

ونلاحظ فى معنى الجدل :

الشدة .. والمغالبة .. وارادة الانتصار . والأحكام . والزام .

وامتداد الخصومة . وما يستتبعه من عرامة الانفعال .. وتوقع الصدام أن لم يقع بالفعل .. مما يجعل المجادلة على خطر عظيم أن لم يلتزم بآداب الإسلام .

---

(١) ج ١/٢٧ .

وذلك يحملنا على القول : بأن الجدل مزلق من مزالق الخطر .. قد يصل بالمتجادلين إلى الحق أو ينتهى بهما إلى طريق مسدود ، ومن ثم قسمه العلماء إلى محمود ومذموم .

ونشأت عن ذلك آراء تقول بجوازه .

وأخرى تحكم بكراهته أو حرمته .

جاء فى المصباح المنير :

(جدل الرجل جدلا ، فهو جدل ، من باب : تعب إذا اشتدت خصومته .

وجادل مجادلة وجدالا ، إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب .

هذا أصله .

ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى :

مقابلة الأدلة لظهور أرجحها .

وهو محمود ، أن كان للوقوف على الحق .

وألا .. فمذموم) .

قال الرازى تفسيرا لقوله تعالى :

(ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ..) [1] .

« الجدل نوعان :

جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل :

---

(٢) غافر ٤

أما الجدال فى تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: لمحمد ﷺ :

(وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام :

(يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) .

أما الجدال فى تقرير الباطل فهو مذموم .

وهو المراد بهذه الآية حيث قال تعالى :

(ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) .

وقال:

(ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) (١) .

وقال:

(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) (٢) .

منشأ الجدال وطريقته وغايته :

بواعث الجدل .. وطريقته .. وغايته .. كل أولئك يحدد سمة الجدال : هل هو بالحق ، أم بالباطل ؟

وعلى هذا الأساس اختلف الجدال إلى : محمود ، ومذموم .

الجدل المحمود :

ماسلمت بواعثه من الخلل .. واستقامت طريقته على الجادة .. ثم استهدف غاية شريفة تحق الحق وتبطل الباطل .

---

(١) الزخرف ٥٨ (٢) غافر ٥

الجدل المذموم :

ما كان خبيثا فى بواعثه ، وطريقته ، وغايته .. بواعث الجدل .

المذموم :

من وراء الجدل المذموم باعثان :

(ا) الترفع ..

(ب) إرادة أظهار نقص الغير .

ويحمل الترفع على الاستكبار وكراهة ظهور الحق على يد غيره .. واظهار علمه والتباهى به ، أما أرادة إظهار نقص الغير فتحمل على التهجم عليه بايذائه وتمزيقه .

وأما غايته فهى :

إلخام الغير واسكاته وتعجيزه .. لا تقوية الحق واعلائه .

يقول الإمام الغزالى فى هذا المعنى :

(أما المجادلة فعبارة عن قصد إلخام الغير ، وتعجيزه ، وتنقصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه .

وآية ذلك : أن يكون تنبيه الخصم من جهة أخرى مكروها عند المجادلة يجب أن يكون هو المظهر له خطأه ، ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه .

ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو : الترفع بأظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنيتان للنفس قويتان لها .

أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس .

وهى مقتضى ما فى العبد من طغيان ودعوى العلو والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية .

وأما تنقيص الآخر فهى من مقتضى طبع السبعية، فانه يقتضى أن يمزق غيره ، ويقصمه ويصدمه ويؤذيه)[1].

الجدل المحمود :

جاء فى الاتقان ج ١/١٣٥

المحمود من الجدل : (احتجاج المتكلم على مايريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه ، على طريقة أرباب الكلام).

وقد أورده القرآن على عادات العرب ليفهموه :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » .

ولم يجىء به على طريقة أرباب الكلام .

لأن المائل إلى دقيق المحاجة ، هو العاجز عن إقامته بالجليل من الكلام .

فان من إستطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون ، لم ينحط إلى الأغض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزا ،

فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ، ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم ، وتلزمهم الحجة ،

وتفهم الخاصة من أبنائها ما يربى على ما أدركه الخطباء)[2].

---

(١) الأحياء ج ٣/١١٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) نص الموضع ،

٢٠

ألفاظ مرادفة للجدل :

١ — المحاورة أو الحوار .

وقد وردت مقترنة بالجدل فى أول سورة « المجادلة » (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) ثم فى سورة الكهف فى قصة الرجلين (قال له صاحبه وهو يحاوره) .

٢ — المناظرة .

وربما جاز لنا أن نقول :

إن الجدل فى جانبه المحمود يأخذ شكل المناظرة أو الحوار .. وهو فى جانبه المذموم ما يسمى بالمراء .

فما هو الحوار ؟ وما هى المناظرة ؟ وما هى المراء ؟ معنى الحوار .

مشتق من الحور وهو (الرجوع عن الشىء . وإلى الشىء) .

حار حورا إلى الشىء : رجع عنه وإليه .

وأحار عليه جوابه : أى رده .

وهم يتحاورون : أى يتراجعون فى الكلام .

والمحاورة هى : المجاوبة .

والتحاور : التجاوب .

يعنى :

عملية تتم بين إثنين فأكثر :

(أ) يطرح أحدهم شيئا (ب) يتمثله الآخر

(جـ) يجيب عليه (د) يحدث تجاوب

(ه) يولد عنه كل منهما مراجعة لما طرح .

(و) ينتهى بالاتفاق — أو إغناء الفكرة بمزيد من الوضوح .. والنظرة الشاملة .

وبالتأمل فى مادة الحوار تجده خاليا من العنف والمغالبة .. وهو أقرب إلى المناظرة إن لم يكنها .. بخلاف المراء على ما نبينه بعد قليل .

المناظرة :

إذا تأملنا كلمة « مناظرة » وتتبعنا أصل اشتقاقها ، فسوف نخرج ببعض الملامح التى تتميز بها كى تؤدى دورها فى إحقاق الحق .

١ — فهى إما أن تكون مشتقة من المناظرة بمعنى المماثلة ..

٢ — وربما رجعت إلى معنى « المقابلة » على معنى أن يكون المتناظران متقابلين .

٣ — وقد تكون من المناظر بمعنى التبصر ، والتفهم لوجهة نظر الخصم .

٤ — وربما كانت مأخوذة من الإنتظار والتمهل .

ماذا تعنى المناظرة بمعنى المماثلة :

قال أفلاطون فى الجمهورية

(الوسيلة الصحيحة الوحيدة لتوصيل المعرفة هى :

وضع ذهنين فى إتصال أحدهما بالآخر) .

وحتى تكون لهذه المعرفة قيمة ينبغى أن يكون المتناظران فى مستوى عقلى واحد تقريباً .

إن لقاء فريقين غير متكافئين فى مجال الرياضة لا يحقق المتعة المنشودة .

كما وأن لقاء إثنين متناظرين بينما مسافة الخلف بينهما بعيدة يحرمنا من متعة صراع الخصمين ..

كما يحرمنا من الفائد الحاصلة عند صراع القمم .

نقل أبو حيان التوحيدى فى « الإمتناع والمؤانسة » قول أحد الفلاسفة :

(العاقل يضل عقله عند محاورة الأحمق .

قال أبو سليمان : هذا صحيح ، ومثاله :

أن العاقل إذا خاطب العاقل فهم ، وإن اختلفت مرتباتهما فى العقل فانما يرجعان إلى أصل العقل .

وليس كذلك العاقل إذا خاطب الأحمق ، فانهما ضدان : والضد يهرب من الضد) .

يقول باحث : (وتبلغ العملية ذروتها فى حوار الأكفاء ، كالذى يدور فى المجامع العلمية .

فهو يدور بين أندادٍ نذروا أنفسهم للعلم ، ونالوا منه حظاً أوفى .

وللحوار الذى يجرى بين فردين أو أفراد من جيلين روعته أيضا :

فهو التعبير عن تواصل الأجيال ، وتحكمه علاقة خاصة يكون الجيل الأصغر فيها متعطشاً إلى المعرفة ، بينما يكون محاوره تواقا إلى العطاء ، تشده روعة الفتوة والبكارة) .

المقابلة :

والمقابلة تعنى : أن يأخذ المتناظران مجلسا واحدا ، فلا يميز أحدهما عن الآخر بأن يجلس بينما يظل زميله واقفا مثلا .

وقد حرص القضاة فى الإسلام على أن يأخذ المتخاصمان وضعا واحدا بلا تمييز .

لأن من شأن ترجيح احد الخصمين فى ساحه القضاء التأثير على الطرف المرجوح :

لأن فى ذلك إضعافاً لروحه المعنوية ، وبالتالى قد لايقدر على الإفصاح عن وجهة نظره تماماً ، وربما ضاع الحق حينئذ .

وقد رد على رضى الله عنه القاضى لأنه كناه فقال :

يا أبا الحسن دون خصمه .. وقال له :

أنت لا تقضى بيننا ، لأنك كنيتنى ، ولم تكنه .

وقد أشار إلى هذا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى :

(ساو بين الناس فى : مجلسك ، ووجهك ، وعدلك ، حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ، ولا يطمع الشريف فى حيفك) .

دخل الأشعث بن قيس على شريح القاضى فى مجلس الحكومة فقال :

مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا وأجلسه معه ..

فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث فقال له شريح ، قم فأجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك !

قال : بل أكلمه من مجلسى !

فقال له : لتقومن أو لأمرن من يقيمك ؟

فقال له الأشعث : لشد ما ارتفعت !

قال : فهل رأيت ذلك ضرك ؟! (أى رفعتى)

قال : لا .

قال : فأراك تعرف نعمة الله على غيرك . وتجهلها على نفسك .

شد أزر الضعيف

وإذا كان ولا بد من تمييز .. فليكن التميز المعين على ظهور الحق .. وذلك يرفع الروح العنوية لدى أضعف الخصمين وغرب الدار منهما .. ليتمكن كل من إعلان وجهة نظره بلا خوف .

كتب عمر بن الخطاب فى كتاب فى القضاء قال فيه :

إذا تقدم إليك الخصمان :

فعليك بالبينة العادلة . أو اليمين القاطعة وأدناء الضعيف ، حتى يشتد قلبه ، وينبسط لسانه ، وتعاهد الغريب ، فانك أن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقـــه لمن لم يرق له ، وآسى بين الناس فى لحظك وطرفك .

وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء .

التبصر والتفهم

وربما كانت المناظرة مأخوذة من : التبصر والتفهم ، على معنى بحال كلا المتناظرين فهم قول صاحبه ، ووزنه وحسن تقديره ، ليحسن تصوره ثم ليصدق بعد ذلك الحكم عليه ، لأن التسرع ، والنظرة المتعجلة المبتسرة لا تمكن من الاستيعاب

وهذا السلك المتأنى يحقق فائدتين :

(أ) فائدة للمتبصر الذى يحيط خبرا بزوايا القضية ، فينادى بنفسه عن التورط فى خطأ يمكن منه خصمه

(ب) ثم هو يخدم الحقيقة ذاتها ، بما يجلى من جوانبها كلها ، لأن التسرع قد لا يمكن من رؤية زوايا تتضح منها رؤيه الحق

الانتظار

وربما رجعت المناظرة إلى معنى « الانتظار » وما يوحى به من ضرورة التريث والانتظار حتى يفرغ الخصم من طرح وجهة نظره كاملة

أن هذا الأدب لينشىء بين الطرفين احتراما متبادلا ، تصير به المناظرة لونا من ألوان التعاون على البر والتقوى ، لا مبارزة كلامية وكفى

وإذا كانت المناظرة « مفاعلة » .. فذلك يعنى ألا ينفرد واحد بالحديث .. ولابد أن يتجاذبا أطرافه .. وإلا .. فلو تفرد واحد لتحولت المناظرة إلى محاضرة ، تحرم العلم من أضافة جديدة تغنى تراثنا ، بقدر ما يختفى الرأى الآخر .. وكان وجوده مهما من حيث أن العلم لا يضيع بين اثنين

ومن هنا ندرك للمناظرة ملامح عامة من خلال تعريفها :

١ — أنها معركة تدار لحساب الحق ، لا لحساب شخص

٢ — (يتردد) الكلام فيها بين شخصين ، يعنى شخصين متقاربين لا يمسك أحدهما بزمام الحديث وحده بل لا بد من تردده بينهما

(ثم أن الذى يتردد .. كلام .. والكلام هو اللفظ المفيد لا اللفظ المجارح ١)

٣ — لابد أن تضع تلك الحرب أوزارها فى وقت ما . لأنها لا تكون سجالا إلا إذا كانت بين مبطلين يدافع فيها الواحد عن نفسه لا عن رأيه .

٤ — مجرد ظهور الحق يسعد الطرفين معا .. فما يهم كلا منهما بالدرجة الأولى : ظهور الحق .. على يد أى واحد . وليس هو أظهار على يده وحدة .. لأن ذلك رغم أنه يفيد الحق ,, أنه على أى حال لون من التعصب !

قال الشافعى :

ما ناظرت أحدا ووددت التغلب عليه !!

المـــراء :

جاء فى فى المصباح المنير :

مارا الشيء مورا من باب قال : تحرك بسرعة ، وناقة موارة اليد : سريعة ، ومار تردد فى عرض ، ومار البحر : أضطرب ، ومار الدم : سال

(ومارت الناقة فى سيرها مورا : ماجت وترددت) لسان العرب .

وسهم مارّ : خفيف نافذ . داخل فى الأجسام .

قال أبو عامر الفلانى :

لقد علم الذئب الذى كان عاديا على الناس ، أنى مارّ السهم نازع .

فى ضوء هذه المعانى يمكن أن نلاحظ مكونات المراء :

فيه حدة .. وسرعة .. وتردد .. وأضطراب .. وخفة .. وسيولة . ومخاصمة ، ومعنى ذلك : أن يثور بين المتخاصمين غبار أكثر ,,

ويتصاعد دخان أكبر ،، ولايمكن الوصول إلى الحق فى خضم هذه الأهواء المتشابكة ،، وفى غابه من الحدة ،، والخفة ،، والتردد ،، والاضطراب ،، جاء فى الأحياء :

(المراء : طعن فى كلام الغير . بأظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وأظهار مزية الكياسة) [1]

وماظنك باثنين يريد كل منهما قتل صاحبه لينفرد هو بالساحة ؟ !

أنها معركة تنتهى حتما بهزيمة الفريقين !!

ومن أجل هذا كان المراء شراكله على ماتشير السنة المطهرة وأقوال العلماء .

التحذير من المراء . والترغيب فى تركه :

عن أبى الدرداء : قال (خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن تتمارى فى شىء من أمر الدين . فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله .

ثم انتهرنا فقال :

مهلا يا أمة محمد : إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فأن المؤمن لا يمارى : إذروا المراء ، فأن المماري تمت خسارته ، ذروا المراء ، فكفى بك إثما ألا تزال مماريا ، ذروا المراء فإ المارى لاأشفع له يوم القيامة .

---

(١) عن الترغيب والترهيب ج/٣ ٨٠

ذروا المراء ، فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة : رياضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ذروا المراء فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان : المراء)[1] .

وعنه ﷺ :

(من ترك الجدال وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ، ومن تركه وهو محق ، بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها)[2] .

ما يشير إليه الحديثان :

١ — المراء سبب رئيسى فى هلاك الأمم وذهاب ريحها .

٢ — قيل لاعرابى : ما تقول فى المراء ؟.

قال : ما عسى أن أقول فى شىء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقدة الوثيقة ، أقل ما فيه أن يكون مدرجة للمغالبة ، والمغالبة أمتن أسباب الفتنة .

٣ — بين الرسول ﷺ أضرار المراء :

(ا) لاخير فى المراء .. إلا قليلا .. عرضاً قريباً . سرعان ما يزول.

(ب) لأنه يثير الحمية وارادة المغالبة فينأى بالمتمارين عن الخط المستقيم.

٤ — ومن شأن المؤمن أن يمنعه إيمانه من التعصب ، والتركيز على ذاته ، مؤثراً أخذ حقائق دينه عن طريق الحوار الهادف المفيد .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى ، والربض : ما حولها » .

٥ — إذا حصل المارى على ما يتخيله فائدة ظاهرة له .. فخسارته قد تمت بالمراء لأنه واحد من أثنين أحلاهما مر :

إذا غلب خصمه فقد خسره وحرم من مودته .

وإذا غلبه خصمه فقد خسر قدراً من كرامته وهيبته .

٦ — المراء وحده يشكل أكبر خطأ يقع فيه الإنسان .. ولو لم يكن للإنسان إلا أنه من المارين لكفاه اثما ... جزاء لا حترافه جدلا عقيماً كان أول ما نهى عنه الرسول بعد الشرك بالله تعالى .

يعنى : لوخلت صحيفة أعمالك من الكذب .. والغيبة .. وكل الموبقات .. وبقى فيها المماراة فقط .. لغطت مساحة النفس كلها وكانت كفاية ! !

٧ — فى الحديث « لاتشار أخاك » أى لاتفعل معه الشر فتحوجه إلى أن يفعل بك مثله ..

فهما تحاملت عليه ونقصت من قدره فهو يكيل لك بنفس الكيل ،

٨ — الذى يترك الجدال ويقطع حبله وهو مبطل له بيت فى — ضواحى الجنة أن صح التعبير .. بينما الذى يتركه وهو محق له بيت فى وسطها ، ، فهو خير من سابقه لماذا ؟

لأن عودة المبطل إلى الحق سهلة من حيث أن حجته ضعيفة .. أولا حجة له أصلا .. وقد تكون له رغبة فى العودة لكن يمنعه العناد ، أو الخجل

أما المحق .. فعودته للحق صعبة .. وله مندوحة فى الثبات على رأيه ومن ثم فعودته تفرض عليه ثمنا باهظا .. ولهذا .. فعدم استمراره فى الجدل تضحية كان له كفاؤها بيتاً فى وسط الجنة ،

وخير من الاثنين معاً ، ، من ترك المراء ابتداء ، ، وأشتغل بتحسين خلقه . ، ليدعو به لا بالقوة .

٩ — أن الأمر على مارواه ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن عيسى عليه السلام قال : « إنما الأمور ثلاثة : أمر تبين لك رشده ، ، فاتبعه ، وأمر تبين لك فيه ، فأجتنبه ، وأمر اختلف فيه فرده إلى عالم »[1]

أن عودتك بما لاتعلم إلى عالم معناه التزام بمبدأ قرآنى : « فاسألوا أهل الذكر » عودة بالقضية إلى قاضيها الفاهم العادل الراحم ، ، وأنت بين يديه تلميذ تتلقى ، ، وتتقبل ، ، أما بقاؤها بينك وبين من هو فى مثل سنك أو أقل .

فمعناه ، ، استمرار الجدل بين ضدين لايجتمعان !

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

(خمس لهم أحسن من الدهم[2] .

لاتتكلم فيما لايعنيك ، ، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر .

ولاتتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، ، فعيب ولا تمار حليما ولاسفيها : فإن الحليم يقليك ، وإن السفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، وأعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام)[3] .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير باسناد لابأس به .
(٢) الموقف من الخيل : الجيد منها .
(٣) ابن أبى الدنيا .